بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه

بجامعة دمشق ـ كلية الشريعة

الحمد لله الواحد الأحد، الخالق الأمجد، والصَّلاة والسَّلام على النَّبي محمّد، الرسول المُمجَّد، وعلى آله وصحبه الكُمَّل الهُجَّد الرُّكَّع السُّجَّد، وبعد:

من المعلوم أن القرآن المجيد كتاب الله تعالى للبشرية قاطبة، وإلى يوم القيامة، ومعجزة المصطفى ﷺ لإثبات صدقه، والإقناع بصحة رسالته، وأنها رسالة تجديد وإحياء وإنقاذ.

وكتاب يتَّصف بهذا الوصف يتطلب مقومات كثيرة توفر خلوده، وتبيّن عظمته، وتنسج في خيال الإنسان وفكره وعقله المتعمق والمتأمل صورة الكون العظيمة، والحياة الشائكة، والإنسان اللغز المتفتح في كل عصر وزمان، ينبىء عن سر موجده، وعظمة خالقه.

ومن أهم هذه المقومات: إعجاز القرآن وتحدّيه، ومظاهر الإعجاز كثيرة متنوعة، منها الإعجاز التشريعي، والإعجاز البياني، والإعجاز العلمي، وإعجاز الإخبار بالمغيبات... إلخ.

ولقد تحدَّث الأدباء والعلماء والحكماء عن مظاهر الإعجاز هذه، وكان من أبرز كلامهم، وأجمل حديثهم: الإعجاز البياني، بدءاً من اختيار الكلمة المفردة المعبِّرة الموحية بتأثيرات عميقة، ومروراً بالجملة المركَّبة، وانتهاء بالتراكيب والصور البيانية الرائعة المنتزعة من متعدد، لوصف أحوال جماعة أو قوم، أو بيان مظهر من مظاهر الخلق الإلهي، والإبداع الرباني.

وامتاز الوصف القرآني من وجوه الإعجاز البياني بمزايا فريدة، من أهمها تصوير المعنويات بصور المحسوسات المشاهدة، فكأنك رسام تمسك بريشة لتصور مساحاتها وجزئياتها وتأثيراتها، وتجعلك في دهشة وانبهار يرتسم في المخيلة، لا تنمحي عن آفاق الذاكرة، ولا تزول من النفس المتفاعلة مع ظلالها وإيقاعاتها. كأنها موسيقا صامتة بل متحركة تهز النفوس وتحرك القلوب، وتثير الوجدانات والعواطف والإحساسات.

ولا يملك المنفعل أو المتفاعل مع الصور القرآنية، والأوصاف البديعة أو المخيفة إلا الإذعان لعظمة الإله المصور، منزل القرآن تصديقاً للنبي ﷺ، ولما تقدمه من الكتب الإلهية، وتبياناً لكل شيء، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

وفي قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وهذا الكتاب «الوصف في القرآن الكريم» صورة بيانية حيّة ومشرقة لأوصاف القرآن وصوره المؤثرة في الإنسان الذي هو محور الخطاب الإلهي، سواء أكان مؤمناً فيرغبه ويثبّته، أم كافراً جاحداً فيرهبه، ويحمله على الإيمان والإذعان، والإقرار بصدق القرآن ومنزله، والتصديق بالنبوات والوحي الإلهي، وختمه بنبوة خاتم الأنبياء والمرسلين. وكان هذا المصنَّف شاملاً لموضوعه، ومحيطاً بوصف العالم الآخر وما فيه من جنة ونار، وقيامة وحشر ونشر، وبعث وحساب، ووصف الطبيعة الإلهية من أرض وسماء، وما فيهما من مخلوقات عجيبة، وأحوال متقلبة، ووصف وقائع الدهور وما حوته من مشاهد الخراب والدمار للأقوام المعذَّبين، وما تعرضوا له من ألوان العذاب، وإن اقتصر الكلام على أربعة أقوام فقط وهم: قوم لوط، وثمود، وأهل مدين، وقوم فرعون.

يتميز هذا الكتاب بعمق الفكرة وإحاطتها، وبالأسلوب المبسَّط الجذاب

الذي يشدُّ القارىء لإكمال محتواه، لتتكامل الصورة الذهنية، ويتحقق الأثر المرجو، كما يتميز بالموازنة بين طريقة الوصف القرآني وبين طرائق الأدباء والشعراء، ليتجلى تفوق القرآن وأنه صورة إبداعية إلهية فريدة تسمو فوق كل بيان.

أما الكاتب السيد الفاضل يونس جاسم فهو كما يبدو متفاعل مع كتاب الله، حريص على إجلاء مكنوناته، يوثق المعلومات بنحو أمين ودقيق، ويصب واسع اطلاعه على القديم والحديث، في نهر عذب فرات، طيب المذاق، غني النفع، حسن الاصطفاء والاختيار، مما جعل نشر الكتاب مفيداً، والاطلاع عليه متعيناً، والله الموفق إلى سواء السبيل.

دمشق في ٢٨ ربيع الأنور الأول ١٤١٥ هـ الموافق ٣/ ٩/ ١٩٩٤.

وهبة مصطفى الزحيلي.

تقديم وتعريف

موضوع الرسالة: «الوصف في القرآن الكريم» وهو بحث فني حاولت فيه إبراز جوانب البيان القرآني الرفيع، وفهم الصور البلاغية فهماً موحياً فيه نداوة الفن، وظل الأدب الظليل، والموسيقى الداخلية التي فيها من النثر تعبيره الدقيق، وفيها من الشعر إيقاعه الرخي المنساب، وهذا الجانب الفني هو ما بشّر به مَن تعمقوا في درس القرآن الكريم من الباحثين المعاصرين وإن كان بحثي هذا أبسط ما أَمِلُوا[1].

وجاء هذا البحث في ثلاثة أبواب:

١ـ الباب الأول:

وصف العالم الآخر في القرآن الكريم وهو لب الموضوع وجلّه حيث إن الوصف الفني للعالم الآخر تجلّى في هذا الباب ما لم يتجلّ في غيره من الأبواب وقد جعلت هذا الباب ثلاثة فصول:

آـ الأول: أحداث الحشر من مراحله الأولى إلى ساعات الحساب، فالثواب أو العقاب، وفيه عرضت الأحداث عرضاً متسلسلاً قد يكون أقرب إلى تتابعها حقيقةً كما فهمتها من القرآن الكريم.

ب ـ الثاني: أوصاف الجنة في القرآن الكريم، ونعيمُها ووصف الداخلين فيها.

---

(١) أقصد بذلك الدكتور الشيخ العلامة صبحي الصالح، الذي أشار في مقدمة كتابه «مباحث في علوم القرآن» إلى أنه يرغب في السمو بدرس الأسلوب القرآني من أفق المصطلحات البلاغية الضيق إلى أفق الفن الأدبي الرفيع.

جـ ـ الثالث: أوصاف النار في القرآن الكريم، وأهوالها ووصف المحشورين إليها.

٢ـ الباب الثاني:

وصف الطبيعة في القرآن الكريم، وقد وزعت هذا البحث على فصلين:

آـ الأرض وما علاها من نبات وتتالى عليها من ليل ونهار.

ب ـ السماء وما فيها من نجوم ساطعة، وكواكب لامعة.

٣ـ الباب الثالث:

وقائع الدهور في القرآن الكريم وكنت أود تسميتها «الأحداث والنوازل الإلهية» لولا أنني عثرت عليها في الكتب المتقدمة، وفيه فصلان:

آـ الأول: «مشاهد عامة من الخراب والدمار».

بـ ـ الثاني: «أقوام تتجرع غصص العذاب» وعرضت فيه لأربعة أقوام: قوم لوط، وثمود، وأهل مدين، وقوم فرعون. على أن هذه الأقوام نماذج بشرية حادت عن الصواب في رحلتها الدنيوية ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْهُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤].

وكنت أود البحث في بابين آخرين هما: الإنسان في القرآن، وخصائص الوصف الفني في القرآن ثم أوازن بين طريقة الوصف القرآني وطرائق الشعراء؛ ليظهر أن القرآن الكريم نسيج وحده لا يدانيه مدانٍ، ولكن ذلك سيكون في دراسة متعمقة أعلى لشهادة أعلى إن شاء الله تعالى.

وأخيراً لا أخفي أنني وجدت تهيّباً في درس هذا الموضوع لدقته من نحو، ولتشعبه من نحو آخر، ولكثرة من درسوه وكانت باعهم فيه أطول من نحو ثالث: منهم القدامى ومنهم المعاصرون.

ولكن أستاذي الدكتور صبحي الصالح حبب إلي البحث من خلال بحوثه القرآنية ذات الأسلوب الأخاذ، والمنهج العلمي في البحث والدرس والتذوق

والتبويب، ثم حاولت السير وراءه لعلّي أرى بعض ما رأى.

وفي الختام أشكر كل من ساعدني في أثناء هذا البحث من صديق وفيٍّ وغيور مخلص ولله المنة والفضل أولاً وآخراً.